

نحو النص

Text Linguistics

لغويات النص

خلفية: Back ground:

الأمر كما أشار هوي Hoey (١٩٨٣ - ١٩٨٤): أن ثمة اتجاهًا إلى إيجاد فارق واضح وسريع بين الخطاب (المنطوق) وبين النص (المكتوب). وينعكس هذا حتى في ثنائية التسمية بالنسبة إلى النظامين، فنحن ندرس تحليلات الخطاب ولكن لغويات النص. وعلى الرغم من أن التمييز بينهما ضروري للوصول إلى بعض الأغراض نجده أحيانًا يخلط بين أوجه الشبه في تنظيم الكلمة المنطوقة والمكتوبة. إن الفارق الذي يذكره هوي Hoey قد جاء في هذا الجزء volume على أساس عملي لا نظري، وينبغي أن يكون هناك وعي بالخلط بين لغويات النص والخطاب من جهة وبين تحليل التخاطب من جهة أخرى.

إن تأكيد اللغويات الحديثة في بواكير نشأتها على استكشاف الوحدات الصغرى ووصفها بالنسبة لكل مستوى من مستويات الصوت والمبنى الصرفي والعلاقة النحوية والدلالة السيميائية لم يكن لها أى استعداد لدراسة قطع مطولة من مكونات النصوص. بل إنه من الممكن أن يقال إن عزل مكونات

صغرى يصرف الاهتمام عن الارتباطات المهمة التي توحد النص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢١). ومع أن زيليج هاريس (١٩٥٢) كان قد اقترح تحليل مجموع الخطاب والتخاطب بحسب قواعد توزيعية (انظر تحليلات الخطاب والتخاطب) مستخدمًا فكرة تحويل transformation بعض فقرات النص فإن هذا الاهتمام الجديد بالنص والخطاب قد اختفى في أيام تحويل هذه الفكرة إلى موضوع تحويل الجمل الذي جاء به تشومسكى (انظر النحو التحويلي والتوليدى). إن البحوث الأولية في نظام النص ظلت وصفية في جوهرها، ومؤسسة في بنيتها على جهود (بايك ١٩٦٧ وكوتش ١٩٧١ وهيجر ١٩٧٦) مع توسع قليل بحسب المصادفة بإطارها ليشمل استمرارية النصوص أو حدوث المواقف (كوسيريو ١٩٥٥ - ١٩٦١ وبايك ١٩٦٧ وهارويج ١٩٦٨ وكوتش ١٩٧١). وقد حدث الاعتداد بالنص بوصفه أطول من الجملة واتجه البحث إلى استكشاف أنواع من بنية النص. وقد نظر إلى ذلك بوصفه عطاء أكثر من أن يكون شيئًا جاء بمشاركة من القارئ ومعتمدًا على الموقف. وننتهى من ذلك إلى إنشاء أعداد مختلفة من الأقسام ومن درجات الإيقان، ولكن مع تصور واضح لكيفية استخدام النصوص في النشاط الاجتماعى (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١).

وللطريقة الوصفية على أى حال ميل إلى الترويض لأن اللغة تشتمل على كثرة بالغة من التراكيب المشتملة على عناصر كثيرة ومختلفة تصعب الإحاطة بها. ومن العجب أن فكرة التحويل التي فقدها هاريس Harris لصالح تشومسكى Chomsky هي التي سمحت بنشأة فكرة جديدة عن النص شجعت في عقد السبعينيات على قفز لغويات النص إلى النحو التحويلي، حيث جاءت النظرة إلى المجموعة غير المحددة من الجمل في اللغة بوصفها صادرة عن مجموعة قليلة من البنيات العميقة، مع إضافة مجموعة من القواعد لتحويل هذه البنيات العميقة إلى بنيات سطحية. لقد خضع الأمر للمناقشة (كانز وفورد ١٩٦٣، وانظر

أيضًا Rhetoric ص ٣٨٣). ويمكن لنص كامل أن يعامل معاملة جملة مفردة بالنظر إلى مواضع الوقف ورؤيتها كما لو كانت مواضع للوصل، كما في حال (and). إن هذا الاتجاه على أى حال يهمل قاصدًا أن يشير إلى ما يراه القارئ وما يعلمه. أضف إلى ذلك أنه يهمل حقيقة كون دلالات النبر والتنغيم والرتبة في غضون الجملة تتوقف على تنظيم الجمل الأخرى في مجرى السياق (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤).

هذا ما لاحظته هايدولف Heidolph (١٩٦٦) من أن ملاحظة المذكور في مقابل غير المذكور يمكن أن تنضم إلى النحو لتبرر هذه العوامل (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). ويسجل آيسنبرج Isen berg (١٩٦٨ - ١٩٧١) عوامل يمكن علاجها بدون جملة واحدة، مثل الضمير والأداة وسباق الزمن، ويضيف ملاحظات ينوئ بها العثور على مستوى عبارات اسمية Noun Phrases ... (and) تشير إلى علاقات (coherence) مثل: علة cause وغرض pupose وتخصيص أو تعيين specification ومقاربة مؤقتة temporal proximity (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤). هذا النوع من الجدل أدى إلى نشأة مشروع Konstanz project الذى أنشئ في جامعة كونستانز الألمانية بواسطة مجموعة من الباحثين من بينهم: هانسريزر Hannes Rieser وبيتر هارتمان Peter Hartmann ويانوس بيتوفى Janos Petofi وجينس إهوى Jens Ihwe وفولفرام كوك Wolfram Kock. وآخرون حاولوا أن ينشئوا نحوًا ومعجمًا يمكن أن يستعمل في توليد نص يسمى Brecht text. وجاء ذكر هذا المشروع في (فاندايك وآل ١٩٧٢). ولقد أبرز هذا المشروع مشكلات أكثر مما جاء بالحل (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٤) "على الرغم من منظمة من القواعد لم يمكن الوصول إلى مبادئ للحكم على النص نحوياً أو تركيبياً" ولم يمكن الوصول إلى حل مشكلة الإحالة العامة. وقد اتجه النقد الذى وجهه كومر Ku mmer إلى هذا المشروع (١٩٧٢)

من خلال الإشارة إلى أن توليد النص من المفترض أن يأتي عن طريق الباحثين لا عن طريق النحو (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥).

وعلى العكس من الطريقة النحوية التي استعملتها مجموعة كونستانز جاء عمل بيتوفى petufi (١٠٧ و ١٩٧٤ و ١٩٧٨ و ١٩٨٠) الذي عنوانه: (Text) Test (est Structure - World Structure Theory) بعوامل تتصل بمستعملي النص أكثر من اتصالها به بوصفه اختراعاً منعزلاً للإنسان كما تتصل بوسائل للتقديم مشتقة من المنطق. وهكذا جاء مشروعه شديد التعقيد (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٥-٢٦).

جاء عرض عناصر النص في نسخة ١٩٨٠ ليمثل النص من جميع اتجاهاته، وإلى جانب الناحية اللغوية الطبيعية جاء موقف قاعدي مترابط (منتظم ومجرد). ولقد سبقت القواعد واللوغارتمات لبيان هذه الأعمال مثل الصوغ formation والتركيب composition والبناء construction والوصف description والترجمة translation والشرح interpretation. أما إحالة النص إلى موضوعات أو مواقف في العالم فإن علاج ذلك يأتي بواسطة مكون "الدلالات العالمية" مع افتراض التوافق بين بنية النص وبنية العالم على الأقل.

ومع إبقاء فاندايك على التمسك بفكرة نحو النص التي وضعت للحفاظ على ظواهر النص التي لا يمكن لنحو الجملة أن يناسبها تقدم فاندايك (١٩٧٢) بفكرة البنية الكبرى macrostructure وهي عبارة عامة عن الموقف المصاحب للنص (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٢٧ - قلرن فاندايك ١٩٧٧ الفصل الخامس). وقد استدل فاندايك بأن إنشاء نص لا بد من أن يبدأ بفكرة رئيسية تتحول بالتدرج إلى معان مفصلة تنمو إلى مستوى معانٍ قطعت إلى تراكيب في حجم الجمل. وعند الوصول إلى حجم الجملة ينبغي أن تكون هناك أعمال في الاتجاه الآخر لاسترجاع الفكرة الرئيسية مثل الحذف (استرجاع مباشر للمادة) أو التعميم (بوضع المادة في صورة أعم) أو البناء (إيجاد مادة جديدة وإدماجها في بنية أكبر). وهكذا عاد فاندايك إلى سيكولوجية المعرفة للوصول إلى نموذج للنص صالح للإجراء. وقد

بحث بالتعاون مع والتر كيتش ما يفعله الناس من أجل اختزال النصوص (قارن كيتش وفاندايك ١٩٧٨، وفاندايك كيتش ١٩٧٨). إن التخليص النموذجي للنص ينبغي أن يكون مؤسسًا على البنية الكبرى macro structure للنص والبنية الكبرى السابقة للاختزان والمبنية على معرفة الأحداث والمواقف في العالم الواقعي.

أما دي بوجراند ودريسler (١٩٨١) فإنهما ينظران إلى مباشرتها الخاصة للغويات النص بوصفها نشأت عن آرائها ويريان أن معظم الدارسين للغويات النص ينبغي أن يلبأوا إلى الإحالة إلى عوارض نوعي البنية (الكبرى والصغرى) بالنسبة لهذه العوارض، وإلى عالم معرفة المتكلمين (انظر التعميم وعلم اللغة النفسى). ويقصد دي بوجراند ودريسler (١٩٨١ ص ٣١) بلفظ Procedural Approach مدخلاً إجرائياً إلى الموضوع يشتمل على وصف استعمال مختلف المستويات. ويعرفان النص (نفس المرجع ص ٣) بأنه حدث اتصالي يخضع لسبعة مستويات نصية هي السبك cohesion والتعليق coherence وكلاهما يرتكز على النص، ثم القصد intentionality والقبول acceptability والمعلومية informativity والموقف situationality والتناص intertextuality وكلها مما يعتمد على مستعمل النص. هذه المستويات السبعة الموصوفة بعد قليل تعمل عمل المبادئ التكوينية التي تحدد وتخلق الاتصال. أضف إلى ذلك ثلاثة مبادئ تنظيمية على الأقل سيأتى وصفها فيما بعد تعمل على بدء الاتصال النصي (انظر Speech Act Theory من أجل الفرق بين المبادئ التكوينية والمبادئ التنظيمية، هذه المبادئ التنظيمية هي الكفاءة efficiency والتأثير effectiveness والمناسبة appropriateness).

المبادئ التكوينية للاتصال

السبك

Cohesion

إن أهم علم تناول السبك باللغة الإنجليزية هو ما قدمه هاليداي وحسن (١٩٧٦)، ولكن ما قدمه ياكوبسون (١٩٦٠) من تأكيد فكرة التوازي بين

الأصالة Patering وبين التكرار في النص (انظر Stylistics) هو أول تطور مفصل لفكرة السبك cohesion (انظر ٢١ w ١٩٨٠ Closs Traugottand Pratt). إن السبك يختص بالطريقة التي تكون بها العناصر اللغوية المتوالية التي يتكون منها النص ذات معان يتصل بعضها ببعض على أساس من القواعد النحوية بطرق أربع (هاليداي ١٩٨٥ الفصل التاسع). تلك الطرق هي: الإحالة والحذف (ويشمل الاستبدال) والأدوات الرابطة والنظم المعجمية.

ويمكن للإحالة أن تكون من نوعين: ١ - إحالة إلى خارج النص exophoric لعنصر من عناصر العالم، نحو (انظر إلى هذا). ٢ - إحالة إلى عناصر من النص endophoric إما عن طريق cataphora بالإحالة إلى الأمام مثل "في البيت الذي بناه يعقوب" إذ تشير أداة التعريف إلى عبارة "الذي بناه يعقوب"، أو عن طريق anaphora أي إحالة إلى الخلف كما في: "بنى يعقوب بيتا وذلك في مزرعته إذ يشير لفظ ذلك إلى بناء البيت". أو تكون الإحالة إشارة لذات مفردة معهودة في الموقف homophora مثل "كانت الشمس طالعة" أو "هي أطعمت الهرة". أما وسائل الإحالة فهي الضمائر الشخصية والإشارات التي تحيل بصحبة الضمائر co referere وصيغ المقارنة comparatives التي تدل على التقابل.

ويشير الحذف للإحالة إلى ماض ana phorically كما في عبارة: "اختر ما شئت" (مع سبق ذكر بعض المعروضات). إن العناصر التي تخلق التواصل بين أجزاء السياق هي عناصر السبك بين أجزاء من النص. وهناك ثلاثة أنواع حسب ما يقوله هاليداي (في نفس المرجع):

١ - التفصيل ilaboration بواسطة الضم apposition إما عن طريق التقابل expository مثل "أو بعبارة أخرى" أو بالتمثيل كما في "فمثلاً" أو بالإيضاح clarification عن طريق التصويب كما في "or rather" أي على الأصح "أو

بصرف الانتباه *distractive* كما في *incidentally* أى بالصدفة أو التعميم
dismissive كما في "in any case" أو التخصيص *particularizing* كما في
particularly أو *in particular*. أو على معنى التكرار *resumptive* كما في *as I was*
saying أو معنى الاختصار *summative* كما في *in short* أو عملياً *verifactive* كما في
actually.

٢ - التشيرك، وتحتة معان فرعية مثل: الإضافة *addition*; كما في *and nor*
والاستدراك *adversative* كما في *but* والاختلاف *variation* وتحتة ثلاثة معان
هى: الإبدال *replasive* كما في *instead* و *on the contrary* والاستثناء *subtraction*
كما في *except* والتخير *alternation* كما في *alternatively*.

٣ - التعزيز *inhancement* ومن فروعها الظرفية المكانية أو الزمانية مثل: *here*
أو *before* والطريقة *manner* كما في الإحالة *reference* والتعليل *causal*
conditional كما في *therefore* أو *matter* كما في *in this respect*.

ويسمى دى بوجراند ودريسلر (١٩٩١ ص ٧١ - ٧٣) هذه العلاقات
junctions كما يسميان طرق الإشارة بها *conjunctive expressions* ويفرقون من هذه
التعبيرات بين أربعة أنواع رئيسية:

١ - اتصال *junction* وهى علاقة إضافية تجمع بين أمور ذات حالة مشتركة مثل
أن يكون الأمران كلاهما صحيحين في عالم النص (انظر بعد ذلك مبدأ التعليق
coherence) ويشار إلى العلاقة بينها بلفظ *and* و *moreover* و *also* و *in addition*
و *desides* و *furthermore*.

٢ - انفصال *disjunction* وهى علاقة تربط بين أشياء ذات وضع اختياري
alternative مثل شيئين لا يشتركان في الصواب في عالم النص، ويشار إليهما بالفاظ
either / Or و *whether or not*.

٣ - مصادر الربط conjunctions وهى علاقة تجمع بين أمور ذات وضع مشترك. ولكنها تبدو متعارضة أو متباينة فى عالم النص مثل علة cause ومعها أثر غير متوقع منها. ويشار إليها بالألفاظ منها: but و however و yet و never the .less

٤ - التبعية subordination وهى تربط بين أشياء يتوقف وضع أحدها على وضع الآخر (مثل اعتماد وقوع الحدث على حدث سابق أو اعتماد وقوع المعلوم على العلة). والألفاظ المعبرة عن ذلك هى: since و as و thus و while و whenever و after و before و next و then و on the ground that و if و .during

ويأتى السبك المعجمى lexical cohesion من خلال التكرار repetition والترادف synonymy والتوارد collocation على حين تميل الإحالة reference والحذف ellipsis والترابط conjunction إلى ربط عبارات متقاربة الموقع فى سياق النص. ويبدو من السبك المعجمى أنه تجمع بين أجزاء أكبر من ذلك فى النص (ولكن انظر إلى نماذج المناقشة فى موضوع التعليق coherence بعد قليل).

يعد يوجين وينتر Eugene Winter أحد الكتاب المفكرين ذوى العطاء Prolific فى موضوع العلاقات بين عبارات النص (هوى hoey ١٩٨٣ ص ١٧). ويمكن لعمله فى دراسة العلاقات بين العبارات Clauses فى معظمه أن يقسم إلى قسمين رئيسيين: فهو من جهة اهتمام بوضع الجملة فى محيط ما يتصل بها من جمل النص ويظهر كيف يمكن لما لها من البنية النحوية والمعنى أن يتم شرحها لو أن الموقع الأكبر كان موضع اختبار. ومن جهة أخرى يبدو اهتمامه بأن يكشف عن تنظيم العبارات فى مجمل السياق دون التركيز فيه على أى جملة بخصوصها.

وفي مجرى آخر مشابه يفرق دي بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص ٧٩) بين المدى القصير وال المدى الطويل الممتد من مسافات سطح بنية النص. وأول هذين المديين ينشئ نماذج من الاعتمادات النحوية التي تجمع بين مكونات السياق، على حين يخلق ثانيهما إعادة استعمال العناصر أو النماذج السابقة (انظر أيضًا فاندايك ١٩٧٧ ص ٩٣).

أضف إلى ذلك كما يشير هوى (١٩٨٣) أن تعريف وينتر (١٩٧١) بالعلاقات الوثيقة بين العبارات بوصفها إجراءات معرفية يمكن بها شرح معنى الجملة أو مجموعة الجمل في النص في ضوء ما يحيط به من جملة أو عدد من الجمل ودلالة على أن حسن السبك النحوي غير المشار إليها لا تعد إحدى العلاقات.

إن معظم الذين يكتبون عن السبك (انظر مثلاً هاليداي وحسن ١٩٧٦) يؤكدون أنه من صنع القارئ على أساس من طرق التأشير. ومع ذلك فإنه بالنظر إلى قوة التأكيد التي استعملها وينتر وكذلك هوى بالنسبة لتأكيدهما على النماذج الكبرى من البنيات العامة نجد القارئ يستطيع بناءها جزئيًا فقط على أساس من طرق السبك لأن عملها تجري مناقشته في الكلام عن التعليق بعد قليل.

إن دي بوجراند ودريسلر (١٩٨١ ص ٨٠) يضمنان ما يلي إلى طرق السبك الطويلة المدى (قارن ما ضمه هاليداي إلى طرق السبك المعجمي التي سبق ذكرها):

التكرار recurrence إعادة ذكر المادة.

التكرار الجزئي partial recurrence استعمالات مختلفة لعناصر اللغة المستعملة ذاتها (أصول الكلمات).

التوازي parallelism إعادة استعمال البنيات مشتملة على مادة مختلفة.
التفسير paraphrase مساواة فكرية تقريبية بين مادة مختلفة في الظاهر.
الشكليات proforms عناصر مختلفة فارغة تستعمل للمحافظة على مستوى
عناصر شائعة أكثر امتلاء وإعادة استعمال بنيات نحوية أساسية.
الحذف ellipsis إباحة إزالة بعض المكونات النيبوية على شرط إعادة المحذوف
من نقطة ما في النص.

التعليق

Coherence

يتصل التعليق بالطريقة التي يحدث بها الوصول إلى ما يتم به عالم
النص، وهو مجموع الأشياء التي يدور حولها النص. ويفترض في عالم النص
أن يكون مكوناً من أفكار وعلامات، وتعرف هذه الأفكار والعلامات في
جملتها بأنها صورة معرفية (أو محتوى معرفي) يمكن أن يستعاد أو ينشط في
الذهن في وحدة أو مناسبة أو علاقات تمثل اتصالاً بين الأفكار التي تظهر معا في
عالم نص ما (انظر دي بوجرانند ودريسler ١٩٨١ ص ٤). ويمكن لهذه
العلامات الأكثر شهرة أن تصنف في مجموعتين فكريتين رئيسيتين هما الغائية
والتوقيت.

١ - الغائية: أما مجموعة العلاقات الغائية فتتصل بالطرق التي يمكن من خلالها
لموقف أو حدث ما أن يؤثر في موقف أو حدث آخر، وتقع هذه العلاقات الفرعية
في أربعة أنواع:

* العلة: cause "قذف زيد الكرة بشدة حتى طارت فوق السور" هنا نرى
قذف الكرة بشدة يؤدي إلى شروط ضرورية من أجل طيران الكرة فوق
السور.

* التمكين: enablement "استلقت الهرة بهدوء في الشمس فزحف الطفل

إليها بخفة وشد ذيلها" هنا توجد علاقة أضعف مما سبق بين حدث استلقاء الهرة وحدث زحف الطفل وجذب الذيل، لأن الحدث الأول وإن كان كافياً sufficient لا يعد شرطاً ضرورياً necessary لإيقاع الحدث الثاني.

* السبب: reason "من أجل انشغالي بكتابة نحو النص طول اليوم أستحق أن استريح هذا المساء". في هذه الحالة يبدو الحدث الثاني استجابة عقلية للحدث الأول ولكنه ليس مسبباً له أو داعياً إليه بل إنه ممكن بسببه.

* الغرض: purpose "أنت تقرأ هذا لمعرفة لغويات النص". مع أننا في هذه الحالة إذ نرى الحدث الأول يجعل الثاني ممكناً نجد مساحة إضافية تجعل الحدث الثاني نتيجة مقصودة للأول.

٢ - التوقيت: time هذه العلاقة تختص بترتيب الأحداث في مجرى الزمن. فأما بالنسبة للعللة والتمكين والسبب فثمة حدث سابق يقف علة أو داعياً للتمكين أو سبباً لحدث آخر يقع بعده، فيمكن أن نقول إن التقدم في الزمن forward directionality جعل الحدث الأول مؤثراً في هذه العلاقات الثلاث. أما في حالة علاقة الغرض فإن لها تأثيراً رجعيًا backward directionality من حيث نرى حدثاً متأخراً يمثل غرضاً مخططاً لحدث متقدم.

يقسم وينتر Winter من جهته العلاقات التركيبية clause relations إلى كبرى (ويقصد بها التابع المنطقي logical sequence، وصغرى والمقصود بها علاقات التناسب matching حيث تكون علاقات التوقيت هي الشكل الأساسي) (انظر: Hoey ١٩ - ١٩٨٣). وكلا هذين النوعين يخضع على أي حال لعلاقة أساسية أكبر هي علاقة الموقف التي تمثل ناحيتين هما إدراك العالم knowing والتفكير thinking. حقاً إن كل العلاقات يمكن اختصارها إلى هذين العنصرين الأساسيين (نفس المرجع - ٢٠)، أما دى بوجراند ودريسلر فلا يقدمان بصراحة مثل هذا العرض القابل للاختصار.

١ - علاقات التابع المنطقي logical sequence relations وهى علاقات بين الأحداث المتوالية سواء كانت واقعة أم ممكنة الوقوع، وهى:

* الشرط - النتيجة condition - consequence (وتتلخص فى إذا... إذن).

* الوساطة - الإنجاز instrument - achievement (وتتلخص بواسطة باء الجر... ومدخولها).

* العلة والمعلول cause - consequence (وتتلخص فى لأن... ف...).

٢ - أما علاقات التناسب matching relations فأحداها علاقة تقابل contrast (يعبر عنها بعبارة: على أى حال...) والأخرى علاقة تلاق compatibility (ويعبر عنها بكلمة: كذلك...).

إن أهم ناحية فى عمل وينتر Winter (وهى توحى بقوة أن عمله هو وهوى Hoey) ينبغى أن ينظر إليه بوصفه مساهمة فى فهم المقصود بالتعليق أكثر من فهم المقصود بالسبك، هى الإصرار على أن هذه العلاقة الوثيقة لا يمكن ببساطة أن تفهم من علامة نصية سطحية. وينبغى لهذا طبعاً أن يكون واضحاً لأى شخص يسعى إلى القوائم المختلفة التى يضعها القراء للإشارة إلى الوسائل لأن الشئ نفسه غالباً لا يوضع فى صورة إشارة إلى علاقات متعددة (انظر مثلاً هاليداي وحسن ١٩٧٠ ص ٢٤٢-٢٤٣).

على أى حال نرى أن الذى يؤكد وينتر Winter بالضرورة هو أن الألفاظ المعجمية الأخرى بالإضافة إلى عبارات الاتصال تعيد القارئ إلى اتخاذ قرار بالنسبة إلى أى علاقة سبق منحها علامات تعبيرية للاتصال. إنه يقسم العبارات الاتصالية الأصلية إلى مجموعتين تقليديتين إحداهما فرعية Subordinate تسمى مجموعة المفردات الأولى والأخرى للملحقات Conjuncts وتسمى مجموعة المفردات الثانية، ولكنه يضيف إلى هذه طائفة الإشارات المعجمية lexical

signals ويسميتها مجموعة الإشارات الثالثة. إن نفس العلاقة يمكن أن يشار إليها بلفظ ينتمى إلى أية واحدة من المجموعات الثلاث. فعلاقة الأداة - النتيجة instrument - achievement يوصل إليها بأى واحدة من العبارات الشارحة الثلاث التالية :

* "بدعوة العلماء والفنّيين إلى تأييد حزبه استولى مستر ويلسون على كثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "مستر ويلسون دعا العلماء والفنّين إلى تأييد حزبه وبهذا فاز بكثير من أصوات الطبقة الوسطى".

* "إن دعوة مستر ويلسون العلماء والفنّين إلى تأييد حزبه كانت أداة لكسب تأييد الطبقة الوسطى".

فالعلاقة في المثال الأول عبر عنها بألفاظ المجموعة الأولى، والعلاقة في المثال الثانى بألفاظ من الثانية، والثالث من الثالثة. إن مفردات المجموعة الثالثة لا تقتصر على المساعدة في الإشارة إلى العلاقة القائمة بين الجمل في فقرة ما، بل تعين على الإشارة إلى النظام في عبارات هي أطول ما في مجموعات الخطاب ويلفت ووتر Winter الانتباه إلى مثال لما بسميه هو "ما وراء التركيب" وهي إشارات معجمية تؤدي مهمة أكبر. ويهتم عمل هوى أكبر اهتمام بما ذكرنا مما وراء اللغة فيما يتعلق بنظام النص. فهو يناقش نماذج التناسب والنماذج العامة والخاصة، وعلى وجه الخصوص نماذج حل المشكلات ويقصد مجموعات العلاقات المنظمة للخطاب.

إن هوى ووتر Hoey و Winter كليهما يعرضان طريقة التكرار الأسلوبية repetition (انظر أيضًا علم الأسلوب). فكلاهما يربط بين الجمل بالتكرار ويسهم بالتكرار في شرح الجملة والنص؛ لأنه إذا اشتملت جملتان على أمر

مشترك فإن الذى يلحقه التغيير هو الذى يستحق انتباه القارئ، على حين تؤدي المادة المكررة دور الإطار للمادة الجديدة. إن التكرار يدل على علاقة التناسب وعلاقة العموم والخصوص. وربما بدأ التكرار في صورة بساطة العنصر المعجمي الذي سبق ظهوره في الخطاب دون وجود اختيار أكثر مما يصلح للإيضاح بالوسائل النحوية، مثل إنهم يرقصون They dance وهي ترقص She dances وربما تبدو في شكل تكرار معقد يبدو فيه المبني الصرفي مشتركاً بين أقسام مختلفة من الألفاظ مثل: إنها رقصت She danced - الرقص the dance - الأحذية الراقصة The dancing shoes

ويمكن للتكرار على أي حال أن يبدو في صورة استبدال substitution في نظام هويي Hoey (في مقابل ما وضعه هاليداي وحسن (١٩٧٦) من اعتبار الاستبدال قسمًا فرعيًا من أقسام الحذف ellipsis (انظر السابق ص ٤٦٣).

إن العلامات التي يستعملها هويي Hoey من هذا النوع من التكرار هي نفسها التي يستعملها هاليداي وحسن (١٩٧٦) (انظر السابق ص ٤ / ٤٦٣)، وأخيرًا يعد التفسير Paraphrase من قبيل التكرار وإن كان التفسير أوضح علامة لعلاقة التناسب matching relation (هويي Hoey ١٩٨٣ ص ١١٣).

إن التناسب هو ما يحدث عند مقارنة اثنين من أجزاء الخطاب من جهة تفاصيلها ففي هذه الحالة تسمى العلامة الناتجة باللقاء compatibility التناسبي. وأحياناً من جهة الاختلاف، وفي هذه الحالة تسمى العلاقة الناتجة بالتقابل contrast التناسبي.

إن الأنواع الوحيدة من النصوص التي تتنظم أحياناً في نوع من علاقات التناسب هي الرسائل والقصائد، وتستعمل علاقة التناسب عادة بإحدى علاقات العموم والخصوص. ذلك لأن من المعتاد حدوث هذا عندما تبدأ قطع من

المعلومات في التعميم الذي يشير إلى التناسب. فأما في حالة الرسائل فإن اهتمام القارئ بخلفيته المعلوماتية ربما يؤدي إلى التعميم، وأما في حالة الشعر فإن تقديم ذلك ربما يكون جزءاً من عملية الشرح.

ويناقد هوي Hoey (الفقرة السابعة من نفس المرجع) نوعين من علاقة عام - خاص general - particular - أى مثلاً للتعميم generalization وعلاقة الإجمال. بالتفصيل preview - detail وكتاهما عند وجودهما مع علاقة التناسب matching ربما تنظمان نضاً كاملاً أو فقرات طويلة من المجموع وهو يعرض كيف تبدو جملتان من جمل التناسب (نفس المرجع ص ١١٣).

٢ - على سبيل المثال لا تشتمل الخريطة إلا على النواحي التي تهتم الشخص الذي يستعملها.

٣ - وكذلك يكون التخطيط المعماري منحصراً في عرض النواحي المهمة بالنسبة للشخص الذي ينوي تسخير مقاول للبناء.

وسيكون لهاتين مقدمة عامة يصلحان من أجلها أن يكونا نموذجين.

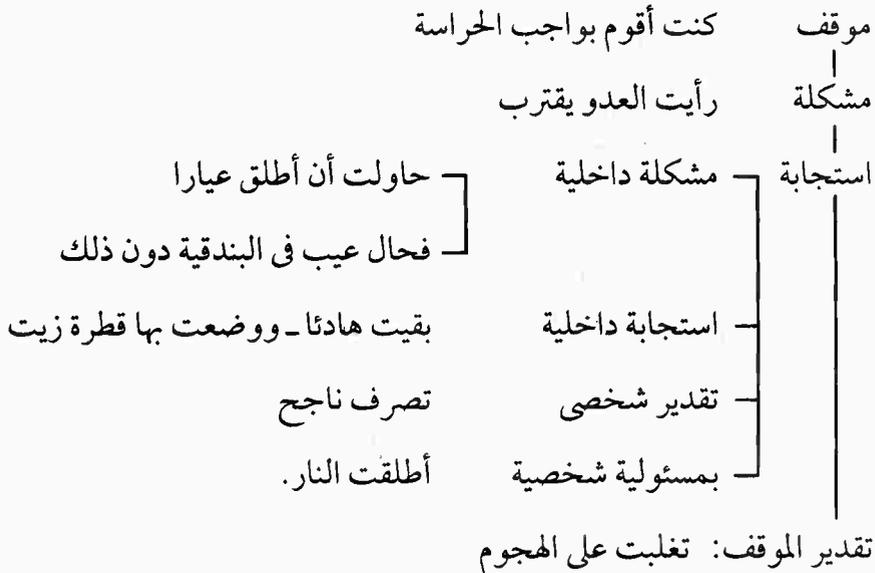
١ - من المهم أن نلاحظ أن النماذج الأيقونية يمكن أيضاً أن تمثل بعض الملامح الخاصة بجزء من العالم الذي تمثله هذه النماذج. (الجميل مأخوذة من شواهد ألان جنكن أمثلة تحت المجهر. Computer management إبريل ١٩٧١ - ٣٨).

أما من حيث علاقة من نوع الإجمال والتفصيل preview - detail فإن عضو التفصيل من العلاقة يقدم معلومات عن عضو الإجمال أو عن جزء منه. ويمكن للتفصيل أن يدخل في علاقة تناسب. وأدق عضو للتفصيل هو التعريف. وتبدو الجملة الأولى في المثال التالي في وضع الإجمال وتبدو الثانية والثالثة في وضع تفاصيل تناسبية.

(١) إن الكلمة الدناركية Higgelig مثيرة للانتباه، ولكنها صعبة بالنسبة

للسيطرة عليها من قبل المتعلمين الأجانب للغة. (٢) فهي من جهة يمكن استعمالها في مواقف يحس المرء فيها بالراحة في مكان دافئ أنيق snug مع الإحساس بأنه في داره. (٣) ومن جهة أخرى يمكن استعمالها في الكلام عن شخص يجعل المرء يحس بأنه مستريح وفي داره.

إن النموذج الصادق للخطاب على أى حال هو: المشكلة.. نموذج الحل the problem solution pattern، ويمكن التعامل مع عدد من النصوص بوصفها مطابقة لنموذج: موقف situation - مشكلة problem - استجابة result - Evaluation - response - تقويم.. نتيجة، مع العود إلى استجابة. أى أن الاستجابة ربما تكون سبباً في مشكلة جديدة تتطلب استجابة جديدة. إن هوي Hoey يقدم مثلاً لذلك في الشكل الإيضاحي الأول المنقول عن (٥٣ - ١٩٨٣ Hoey). النموذج يمكن أن يتضح بواسطة الاستفهام فبعد كل من الجمل في النموذج رقم ١ قد يسأل القارئ سؤالاً مثل: ما الذى حدث إذن؟ وماذا استطعت أن تفعل عند ذلك؟ أو يمكن أن يكشف عن النموذج قد يكون بواسطة التفسير مع استعمال إشارات معجمية (نفس المرجع المذكور).



إن الوسيلة التي تم التغلب بها على الهجوم كانت هي فتح النار، وكانت علة فتح النار هي رؤية العدو يتقدم، أما مناسبة رؤية العدو وهو يتقدم فهي القيام بواجب الحراسة، إن الإشارة المعجمية المستعملة في التفسير يمكن أن تكون المصطلحات في النموذج نفسه (نفس المرجع). فلقد كان الموقف قيام الحارس بواجب الحراسة عندما رأى العدو يتقدم فحلت هذه المشكلة بفتح النار. فهذا الموقف أدى إلى النتيجة المطلوبة وهي التغلب على الهجوم.

ويستخلص هويى (ص ٥٧ - ٥٨) أربع مجموعات من حالات التخطيط تبدو منها العلاقة بين عنصرى المشكلة.. الحل والعلاقة بين التراكيب:

١ - سوف نفترض وجود جزأين من خطاب "أ" و"ب" حيث يقول الغرض بالنسبة إلى "أ" إن العضو الأول قد وضع وضعًا مستقلًا منذ البداية وإن الثانى يشتمل على دور نائب ويقوم بدور الاستجابة.

٢ - سنفترض أن هذه أجزاء من الخطاب (الأول والثانى والثالث) يقع الأول والثانى منها فى علاقة أداة.. إنجاز أو أداة.. غرض إذ يكون الغرض مساويًا تقريبًا لعلاقة أمل.. إنجاز التى لم يكن العضو الأول منها منظورًا إليه بوصفه مشكلة مستقلة.

وبالنظر إلى هذه الظروف نجد أنه لو كان الثانى فى وضع نائب والثالث بمنع الرجوع.. والتجنبات.. وتجنبات الضرر أو طلب مساعدة فى المنع إلخ فإن بعض النواحي الضرورية تكون مشكلة والثانى استجابة.

٣ - سنفترض أن جزأين فى خطاب كانا فى علاقة علة.. نتيجة وأن أولهما لم ينشأ نشأة مستقلة بوصفه مشكلة فإذا اشتمل الثانى على وضع نائب وكان هذا الثانى أيضًا مانعًا للرجوع والتجنبات أو تجنب الضرر

لبعض النواحي الضرورية في الأول فإن الأول مشكلة والثاني استجابة cause
.- consequences

٤ - سنفترض نفس الافتراض من أجل شروط تخطيط الثالث. فلو أن الثاني
اشتمل على وضع نائب واستطاع أيضًا أن يلحق به المركب الثالث.. غرض الذى
يرفض فهما عاميًا لما يدل عليه الثاني بالإضافة إلى ثالث حديث التكوين
بالمطابقة لشروط التخطيط رقم ٢ فإن الأول عندئذ يكون مشكلة والثاني
استجابة.

إن مقاربتى هوى و وينتر تختلفان عن مقارنة دى بوجراند ودريسلر
(١٩٨١) وفاندايك وكيثش (١٩٧٨) ببقائهما إلى حد ما على خدمة الخطاب (ولو
أنهما يشيران إلى سطح أدوار عميقة مثل "نائب" agent كما كان في المقارنة
السابقة. وفي عدم توكيد الإجراءات السيكلوجية للفهم وإدراك البنات
الكبرى).

بالعكس، انصب التوكيد على الطرق التى يكون فيها سطح الخطاب (غير
منظو بطبعه على ضرورة أن يكون مقابلاً للأعماق المختفية) مشتملاً على أدلة
كافية تقود القارئ أو المستمع إلى إدراك تنظيم الخطاب إدراكًا دقيقًا.

إن لهذا ميزة تتمثل في أن الظواهر الموصوفة يمكن إدراكها مباشرة إلى حد
ما على حين نرى الإحالة إلى الأفكار والعلاقات في عالم النص وإلى التنظيمات
تظل ذات طبيعة افتراضية. ومع ذلك تظل المقاربتان في أحسن حال بوصفهما
بنيتين سطحيّتين متكاملتين وهبهما اللغويون عملاً تفصيليًا فيما حول السبك.

Cohesion والتعليق coherence ومع ذلك قد يكون من التفكير السطحي أن
نظن أن الإجراءات الفكرية للقراء والمعارف المتصلة بأمور مختلفة في العالم
غير ذات أهمية في فهم النص. بل يمكن أن يكون مما يثير النقاش أن الفائدة

العظيمة لمشكلة حل النماذج في مجال تحليل النص هي أنها تتناسب عن قرب مع إجراءات الكاتب والقارئ الفكرية التي يشير إليها دي بوجراند ودريسلر (١٩٨١) في الكلام عن الشروط الخمسة الباقية للنصية.

القصد: Intentionality

يتصل القصد بنية منشئ النص أن ينتج نصًا ذا سبك وتعليق ليصل إلى ما خطط للوصول إليه. ويستند منشئ النص ومستقبلوه إلى مبدأ جريس Grice للتعاون في سبيل الخطاب، ولكن علم لغة النص يضيف إلى تضمين المحادثة أن مستعملي اللغة يهدفون إلى غرض (دي بوجراند ودريسلر ١٩٨١ - ص ١٥٣ و ٣-١٥٢). والتخطيط للخطاب يقتضي حلاً مشتركاً للمشاكل problem solving من جانبي المنشئ والمستقبل كليهما إلا أن الاتصال الناجح يتطلب تطلبًا واضحًا القدرة على تتبع أو استنتاج الأغراض على أساس ما يقول كلاهما. وينبغي لمنتج النص على أسس الشعار نفسه أن يكون قادرين على توقع استجابات المستقبلين له لحظة استقباله والبناء على نموذج داخلي من قبل المستقبلين ومعتقداتهم ومعلوماتهم.

القبول: Acceptability

القبول مما يتصل برغبة المستقبل أن يكون النص جيد السبك والتعليق وعلاقته به (دي بوجراند ودريسلر ١٩٨١ - ٧). ويمثل هذا الموقف استجابة لبعض العوامل مثل نوع النص والموقف الاجتماعي أو الثقافي والمرغبات في بلوغ الأغراض. وسيتحمل المستقبل أشياء مثل سوء المطع وهو مما يؤثر في التعليق والسبك كما يستعمل الاستنتاج المبني على معرفته الشخصية من أجل ضم عالم النص بعضه إلى بعض.

المعلوماتية: Informativity

تتعلق المعلوماتية بالمدى الذي تصل إليه الأحداث المعبر عنها في النص الحاضر في مقابل غير المتوقع، أو المعروف في مقابل غير المعروف

أو غير المؤكد (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ - ٨ - ٩) ومن هنا تأتي الحاجة إلى الإحالة إلى فكرة الاحتمال *probability* (نفس المرجع ص ١٤)، وسيكون الأكثر احتمالاً في أى موقف بعينه أكثر توقعاً من الأقل احتمالاً. وعندما يحدث شيء لم يكن متوقعاً (نفس المرجع ص ١٤٤) سيكون على مستقبل النص أن يقوم يبحث عن الدافع *motivation search* (حالة خاصة من حالات حل المشكلات) لمعرفة ما تدل عليه هذه الأحداث، ولماذا تم اختيارها وكيف يمكن أن تحدث مرة أخرى مع تحقق الاستمرار الذى يعتبر أساساً للاتصال.

وإذا لم يأت المستقبل بأى حل فسوف يبدو النص فى صورة كلام فارغ. إن توقع مستقبل النص لما سوف يظهر فى النص يؤثر بقوة فى إدراكه لنوع النص الذى أمامه الآن، فالذى لا يتوقع فى تقرير فنى قد يكون أقل قدرًا من عدم التوقع الحادث فى قصيدة شعرية. ومما يثير الانتباه أن نلاحظ أن من يصادفون كلامًا فارغًا سيتطيعون فى العادة أن يروا له معنى إذا قيل لهم إن النص قصيدة.

رعاية الموقف: Situationality

لرعاية الموقف صلة بالعوامل التى تجعل النص مناسبًا للموقف السائد عند استعماله (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ - ٩) مرة أخرى نقرر أن مستقبل النص سيحاول جاهدًا كما ذكرنا أن يحل أية مشكلة ناشئة عن حدوث أمور من الواضح أنها غير ذات صلة بالنص (أى أن مستقبل النص سيشغل نفسه بحل المشكلات ليجعل هذه الأمور ذات صلة بالنص).

التناسق: Intertextuality

يتصل التناسق بالطريقة التى يتوقف عليها استعمال نص ما على المعرفة بنصوص أخرى. فمثلًا يتوقف معنى علامة مرور تدعو إلى استئناف السير العادى على أساس ما سبقها من نصوص تطلب من السائق أن يبطئ السير.

فاشترك النصوص في اعتماد بعضها على بعض في ضوء مبدأ التناص هو سبب لتفصيل أنواع النصوص، وهي مجموعات من النصوص تعرض خصائص نوعية ونماذج. إن السخرية بواسطة المحاكاة parodies والعروض النقدية والتقارير والاستجابات لمناقشات الآخرين هي أساسًا وبوضوح معتمدة على التناص. وفي حالات أخرى نجد أنفسنا أقل إدراكًا لقيمة التناص، فعندما نقرأ قصة نجد أنها تبدو كأنها نص مستقل. ومع ذلك نعلم على تقاليد كتابة النصوص، ونحن نكشف عن معرفتنا بما تتحقق به صفة القصة عند قراءتها.

المبادئ التنظيمية للاتصال النصي

الكفاءة: Efficiency

تتوقف الكفاءة على استعمال النص في الاتصال بأقل قدر من الجهد بواسطة المساهمة، أى أنها مشاركة في حالة إجرائية... أى بإجراء عمليات بواسطة حَمَلٍ حَمَلٍ خفيف على الانتباه وبلوغ الغاية (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٣٤).

التأثير: Effectiveness

يتوقف التأثير على أن يترك النص انطباعًا قويًا وعلى إيجاد ظروف مناسبة للوصول إلى غرض فيظهر عمقًا إجرائيًا بمعنى الاستعمال اللغوي لوسائل الانتباه والوصول إلى مادة مأخوذة من عرض الأداء الواضح (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٣٤).

المناسبة: Appropriateness

يقصد بالمناسبة الاتفاق بين تكوين النص وبين الطرق التي تتم بها المحافظة على مستوى النصية. إنها تحدد العلاقة بين الطرف القائم ومستويات النصية، بحيث يكون هناك اعتماد على مستويات النصية مع اعتبار سهولة المشاركة في الإجراء (دى بوجراند ودريسلر ١٩٨١ ص ٣٤). إنها تتوسط بين

الكفاءة والتأثير. اللذين يبدو في نفس المرجع أنها يعملان في اتجاهين متعارضين. ذلك أن اللغة البسيطة والمحتوى المبتذل من trite من السهل أن يوجد ويستقبلا ولكنها يسببان مللا ويخلفان وراءهما أقل أثر. أما اللغة الخلاقة والمحتوى الغريب (effectiveness) فهما بالعكس يمكن أن يوجد تأثيراً قوياً ولكنها يصبحان على قدر من الصعوبة في حال الإنتاج والإدراك:

الطبع: Naturalness

من السهل في مجال لغة النص أن نلاحظ الصلة بين الفقرات في الحدود الفاصلة بين الجمل، كما نلاحظ أن هذه الصلة تهىء نماذج كبرى من تنظيم النصوص. أضف إلى ذلك على أي حال إن الإحالة إلى نص يحيط بجملته ما ربما توحي بأن هذا النص يلقي ظلاً على طبيعة naturalness هذه الجملة.

إن مصطلح الطبع naturalness قد وضعه سنكلير Sinclair للدلالة على فكرة جودة بناء الجمل في النص (١٩٨٤ ص ٢٠٣)، وهو في مقابل ما يفهم عادة بأنه حسن صياغة الجملة وهو ما ينسب إليها عادة عند انعزالها. يقول سنكلير Sinclair: إن كثيراً من الجمل الحسنة الصياغة لا تبدو عليها صفة الطبع في نظر أحد المتكلمين باللغة وأنها مادامت تبدو غريبة على رغم جودة تركيبها فإنها تعد مخالفة للقيود التي لا تحتسب بين شروط جودة بناء الجملة (نفس المرجع)، حتى إن جودة البناء ومفهوم الطبع يعدان من المتغيرات المختلفة. إن بعض محددات الوفاء بشروط الطبع توجد في الخطاب المحيط بالجملة، على حين توجد شروط بناء الجملة في داخل الجملة ذاتها. ومن هنا تصبح عبارة مثل: "إذا شئت" غير مصوغة بالشروط النحوية التقليدية، ولكنها استجابة طبيعية natural لنوع من الرجاء. إنها تشتمل على ما يسميه سنكلير Sinclair محدد المدى range finder للدلالة على أن عنصرًا من معية النص co - text (أي مصاحب النص) أو من الموقف الذي جرى فيه استعمال النص context سيجعل

من غير المشكل إدراك إن العنصر المتسبب إلى النص في هذه الحالة هو الرجاء السابق. إن الدرجة التي نعتد بها بحسب طبيعتها naturalness بما سواها من النص أو على الموقف تسمى الأفراد isolation وهي إحدى ثلاثة معايير parameters يمكن أن يعبر بحسبها عن طبيعة naturalness الجملة. ويعتمد الأفراد نفسه على الفضلات allowances التي تسمى بذلك لأنها من عوارض الجملة على الرغم من أنها تنسب إلى بقية النص text أو يعتمد على الموقف context من أجل تحديدها لا تأثير لها في جودة بناء الجملة. من هذه الفضلات بعض الضمائر كالتى نراها أثقل سوادًا من حروف كتابة الجملة: I wouldn't have bought it if he hadn't been there

(نفس المرجع ص ٢٠٤). هذه الفضلات في بنية الجملة لا تدخل العيب على صوغها ولكنها تشير إلى استقلالها عما يحيط بها من خطاب. وهذا هو موضع توقع اكتشاف مراجع هذه الفضلات أى ما تشير إليه It., he, there.

وفي مقابل ذلك تأتي جملة: prince Charles is now a husband حسنة الصوغ بحسب الطرق النحوية التقليدية ولكنها ليست جملة طبيعية natural لأن ثمة تعارضاً في الأساس بين التوقعات المتبادلة وبين البنية المساوية equative بسبب أداة التنكير وما بعدها من لفظ husband. إن الكلمات الدالة على المهنة مثل (sailor) لا تسبب مثل هذا التعارض، ولكن الجملة تتعارض مع المعيار الثانى الذى تصاغ به الجمل الطبيعية natural وهو معيار الاصطلاحية - idiomaticity.

لو أن لفظ husband تقدمه لفظ good مثلاً لأصبحت الجملة طبيعية أكثر مما بدت، والعنصر الذى له هذا الأثر على مدخوله يسمى دعامة supporter وهو كون العنصر اللغوى يتطلب الورد collocation بصحبة يكون عنصر الحياد neutrality قد تحقق. وهذا معيار parameter آخر فى الكلام عن الطبع naturalness. وتؤثر الدعائم supporters المذكورة وهى الحياد neutrality

والإفراد isolation والاصطلاحية (أى دلالة المصطلح naturalness) تأثيرًا اصطلاحياً آخر كما نرى مثلاً فى I am trying to rack my brains (١٩٨٤ ص ٢٠). إن ضعف توقع التوارد بين trying وبين rack my brains يسهم إلى حد كبير فى إيجاد درجة منخفضة من المستوى الاصطلاحى وما يعرض له من عدم الطبع.

ويرجو سنكلير Sinclair أن تؤدى دراسة أوسع لمدى النص إلى الوصول إلى مستويات مضبوطة لطبيعة الجملة (نفس المرجع ص ٢١٠).

إن دراسة الفضلات ستؤدى إلى تحديد بنية نصية مجردة لأى جملة، فدراسة محددات المدى range finders ستؤدى إلى ما يلى:

١ - الكشف عن كيفية إدخال كل جملة فى بناء النص.

٢ - الكشف عن مدى الظواهر الفردية individual features.

أما عن الدعائم supporters فإن دراستها ستكشف الكثير من الحلول لغموض النص وعلى تعيين:

١ - عناصر مركبات مثل العبارات phrases.

٢ - المدى المسموح به للاختلاف.

إن الدرجات الثلاث من الحياد والإفراد والاصطلاحية ستسمح للجمل أن يقارن بعضها مع بعض وربما تؤدى إلى نشأة بلاغة rhetoric حديثة على مستوى الجملة.

وهكذا يبدو أنه بينما وجدنا أن المدخل النحوى قليل العون فى مجال لغة النص نرى أن دراسة أخرى فى مجال الطبع يمكن أن تضيف أضواء لا على طبيعة النص فقط بل إلى المجال التقليدى للنحو وهو الجملة.

نظرية سيميوطيقية للنصوص

Floyd Merrel

"لن يكون لكتابي مقدمة أقدمه بها لأي شخص. فمثله كمثل أى مؤلف رياضى لا يقترح أفكارا معينة أو أسبابا محددة لاعتقاد صدقها، لكن القارئ لو تقبل ذلك وجب عليه أن يكون هذا القبول متفقاً مع ما أقدمه من أسباب، وتقع المسئولية عليه هو".

بيرس (١١-١-١٩٦٠)

١٠ - إننى أبدأ هذه المقدمة بوصفها طريقة للدخول إلى نظرية للنصوص بمناقشة مضامين البحث التالى. ولست أرى من الضرورى هنا أن أتعرض للكلام فى مدى اتساع نظريات النص وطرق تحليل النصوص. ومع هذا أحس أنه من الضرورى أن أنسب الغرض من هذا البحث بما يتسنى لى من الدقة إلى العمل الحاضر فى هذا الحقل. ومع عقد النية على تحديد اتجاه المنظور المنهجى الذى كونه أرانى أوازن باختصار بين نواحي دراسات تشومسكى وفلسفة اللغة عند فتجنشتاين التى أعانت على إيجاد دوافع لخلق كثير من الأفكار التى تدور حول بناء النصوص واستيعابها. وبعد ذلك أجمع معاً أفكاراً ذات دلالة من السيرنطيقا ومن أفكار C. S. Peirce التى كان لها أثر فى أفكارى الخاصة. وبهذا تكون مقدمتى قد اكتملت بحيث تبدو فى وضع علامة تشير إلى النص

إذا بدت في صورتها التامة أشبه بالأيقونة أو بخريطة تحيرت في مجاهلها لعدة سنوات مضت. وقد يصادف القارئ عددًا من الإشارات غير المؤلفات ولكن الرحلة في نهايتها ستمنحه كما أرجو له (أو لها) رؤية لهذه الخريطة في لحظة قدرة على الفهم.

١١ - يقول ليبسكى (١٩٧٦ - ١٩١) إنه "مع تداخل الدراسات اللغوية الحديثة المكرر في مجال الدراسات الأدبية القصصية حدث تداخل صحى متزايد بين التحليل اللغوى وبين الطرق التقليدية للبحث الأدبى". وأنا أخشى مع الأسف ألا يكون هذا التداخل قد أدى إلى نتائج مرضية. إن المسألة التى تنتظر الإجابة هى: هل يمكن للدراسات اللغوية أن تقدم نموذجًا مناسبًا لتحليل النصوص؟ لا أستطيع فى هذه المقدمة أن أحاول حل هذه المسألة، ومع ذلك سأحاول أن أوضح باختصار كيف تختلف هذه الدراسة عن نظريات النص السائدة المختلفة والمستندة إلى الدراسات اللغوية.

ولهذا يمكن أن نقول بصفة عامة إن عددًا من عناصر النظريات المعاصرة حول النصوص يدخل فى نطاق نظرية أنشأتها أكثر منها شمولاً. والفرق الرئيسى بين هذه العناصر وبين نظرتى هو أن سيميائيات النص (كما استعمل المصطلح) لا تختص اختصاصًا دقيقًا بالنهاج اللغوية والأدبية للنصوص. إنها تشتمل بصفة عامة على ما هو لغوى وما هو غير لغوى (أى معرفى عام) من نواحي النصوص المكتوبة. ولهذا كان من اغراضى أن أقدم مادة جديدة ذات صلة بذلك للعرض على انتباه الذين يعملون الآن فى القيام على نظرية النص على وجه الخصوص.

دعنا أولاً نلفت الانتباه إلى البنيوية الفرنسية. فإذا نظرنا إلى النموذج الثنائى الذى قدمه دى سوسير لمفهوم العلامة sign وإلى السمات الفارقة distinctive feaures التى جاءت بها مدرسة براغ وكذلك جلوسيميائية هيلمسليف فسوف نرى أن معظم البنيويين الفرنسيين يفهمون الثنائية بأنها المبدأ الرئيسى لتحديد

قواعد العقل الإنساني. ولهذا جاء (١) افتراض أن المنطق الثنائي binary logic هو الأساس لكل النظم المشفرة coded لغوية كانت أم غير ذلك. إنها تكشف بالمغزى purportedly عن ميل العقل إلى تصنيف العالم إلى هياكل مثنوية تقابلية وإلى بناء رسائل شفرية مشتقة من هذه الهياكل. ولأنهم يستندون إلى هذه الأداة التحليلية وجدنا بارث (١٩٦٦) وجريماس (١٩٦٦ ب) وكريستيفا (١٩٦٩) وميتز (١٩٧٤ أ) و(١٩٧٤ ب) وتود روف (١٩٦٩) وآخرين يرهصون بالقول بتطابق شكلي بين النصوص والجمل، ويخضعون موادهم البحثية لطرق وصفية شبيهة باللغويات البنيوية. هذا الفرض يعنى أن طرق الدرس اللغوى يمكن أن تستعمل لتفسير الأدب بصورة منظمة (٢٠ - ٢٤ Culler, ١٩٧٥).

هذا التناول العفوى uncritical للفكر اللغوى قوبل بالاعتراض لأسباب مختلفة (٢) إذا أردنا أن نذكر قليلاً من هذه الأسباب فإن لنا أن نقول إن طرق التحليل البنيوى تميل إلى إنتاج خطط استاتيكية للتصنيف (١٩٧١ Letebvre ١٩٦٨ Ricoeur)، وأن تبالغ في استعمال النموذج اللغوى (١٩٧٠ Jamson, ١٩٧٢ Hendriks)، أو أن تجرد (to abstract) بصورة قصوى شخصيات وأحداث روائية (narrative events) من النص (١٩٦٩ Chatman, ١٩٧٣ Weimann). أضف إلى ذلك أن بعض التحليلات البنيوية تبدو غير قادرة على تفسير بعض الخصائص المشتركة في الأدب بين المجاز والتصوير والسخرية والغموض، على حين تفضل تحليلات أخرى في إدراك العلاقة بين القارئ والنص إدراكاً دقيقاً (١٩٧٥ Culler).

ومن منظور يختلف قليلاً ويتناسب مع تحليل بروب (Propp, ١٩٦٨) للقصص الشعبية يقترح بريموند (١٩٦٦) منطقاً للأعمال السردية narrative actions، ويخترع جريماس (١٩٦٦ - أ) منطقاً لوسائل العمل السردى، كما يقترح تودروف (١٩٦٦) طبقات عامة للقصص. هذه الأعمال المنطقية أرسطوطاليسية دون شك (لأنها إما ثنائية الطابع وإما أنها مبنية على

الموضوع والمحمول). والمشكلة أن هذه النماذج البروبية (نسبة إلى Propp) المتعلقة بالنص الأدبي المركب نسبيًا تميل إلى الحد من الطابع المركب للخصائص وتجعلها وظائف للتركيب (تشانمان ١٩٧٢). أضف على ذلك أن الدراسات الأثروبولوجية للقصص الشعبي مثل قصص دنديز (Dundes, ١٩٦٤، و جورجى ١٩٧٠، Geovges، و كولبي ١٩٧٠، Colby). جاءت أيضًا على طريقة بروب، ولكن مناسبتها للنص الأدبي مشكوك فيها (هندريكس ١٩٧٣). وقد قيل ما يشبه ذلك بالنسبة لليفي شتراوس في تحليله للأسطورة (دوناتو ١٩٦٧ و بون ١٩٧٢).

باختصار حاول كثير من البنيويين أن يوجدوا طريقة للتحليل يمكن لها أن توضح الأقسام والوظائف في النصوص القصصية. ومع ذلك حاولوا بصفة عامة أن يتقدموا بنظريات تخطيطية محدودة عند نظرهم في نصوص محترمة إلى حد ما. ولقد حاولت مع الاحتفاظ في ذهني بهذا الفشل أن أنشئ تصورًا أوسع لفكرة من خارج علم اللغة تتناول سيميائيات النص وذلك عكس ما اقترحه بارث (Barthes ١٩٧٠) ذات مرة من أن علم اللغة يعد خطوة إضافية للسيميوطيقا.

في السنوات الأخيرة وضعت طرق أخرى للتحليل من خارج صفوف البنيويين. ولنا أن نذكر من أصحاب هذه الطرق عددًا قليلًا. فمنهم مثلاً أوهمان (Ohmann, ١٩٦٧) الذي رأى أن النص يمكن أن يجد تفسيرًا جيدًا من خلال تحليل ما به من الجمل واحدة بعد الأخرى بواسطة التحليل الإفرادى لكل جزء واحد من أجزائه. ولقد حاول عدد من الدارسين من أمثال آرتس (١٩٧١ Aarts, و فاولر (Fowler, ١٩٦٩) و بوتر (Butters, ١٩٧٠) و ليفين (١٩٦٢ Levin, و ثورن (Thorne, ١٩٦٥ - ١٩٧٠) وطائفة أخرى أن يدرسوا الأسلوب الشعري في حدود ما يقبله من الترخص في استعمال اللغة الطبيعية. ثم اتبع ريفاتير

(Riffaterre, ١٩٦٦) طريقة معجمية محددة في القول بوجود لغة شعرية واحدة. أما هاريس (Harris, ١٩٥٢) ومحللو الخطاب فإنهم يصفون النص بأنه جملة طويلة مبنية بواسطة وسائل ربط. ويذهب جارفين (Garvin, ١٩٦٤) إلى حد القول بأن علم اللغة يهيئ نظامًا دقيقًا للعدد algorithms ضروريًا لتحليل كل صور الفهم الإنساني. وعند النظر إلى هذا الاتجاه نجد من الضروري مرة أخرى أن نؤكد أن علم اللغة لا يتحتم فيه بالضرورة أن يقدم إجراءً آليًا لشرح كل الظواهر المشفرة (٣). إن الزعم بأن طرق التحليل المستعملة في علم اللغة يمكن استخدامها مباشرة في جميع النصوص الأدبية فيه تجاهل لما بينها وبين لغة النصوص، منطوقة أو مكتوبة، من أوجه الخلاف. لقد حدث اهتمام في الأيام الأخيرة بتناول "نحو النص" من خلال نظريات تخطيطية لإنشاء النصوص باتباع فكرة "المقدرة النصية" text competence (٤). وكان الموضوع المطلوب هو إظهار بديل عن النماذج البنوية السابقة صالح للنحو التوليدي بتقديم طرق شكلية وكمية للوصول إلى دراسة أوسع وأكثر تنظيمًا للنص الأدبي. ومع ذلك نرى صور نحو النص كما صورها تشومسكى هي في عمومها تلفيقات تجريديّة ليس لها إلا القليل من الفائدة في نظر دعاة التحليل المهتمين بالدراسات الفنية المتناسكة.

أضف إلى ذلك أن أنصار نحو النص إذ يرفضون الطابع الاستاتيكي الجدولي لتصنيفات البنيويين الأصوليين يرتكبون في العادة خطأ آخر من حيث يرتضون مع البنيويين أن يحل نموذج لغوي (أحيانًا بلا بصيرة) محل آخر. ولاشك أن بعض العناصر اللغوية يمكن أن تقدم أسسًا لبناء النص (هاليدى وحسن ١٩٧٦، ومير ١٩٧٥). بل يمكن للقواعد أن تراعى حتى تتول في النهاية إلى تحديد البنية النهائية للقصص (Rumelhart, ١٩٧٣ Prince, ١٩٧٨ Chatman, ١٩٧٥) ولكن ذلك لا يكفي للتأكد من أن النماذج اللغوية المطبقة بدقة ستكشف عن البنية التحتية للنصوص (٥).

إن المشكلة التي تكمن في الصور الأولى لنحو النص أن أصحابها ركزوا انتباههم أولاً على النواحي النحوية في النصوص، أو على الدلالات التأويلية تبعاً لكاتز وفورد وتشومسكى. وفي هجمة أخرى لاحقة ضمن عمل ماناجيو Montagu لإنشاء وسائل للوصف النحوى ودراسات للعلاقات بين التوليدية والمنطق ربما يكون هذا قد ساعد في علاج جزء من هذه المشكلة (٦). وفي خلال عدد من السنين القليلة الماضية كان هناك اهتمام بالناحية الذرائعية Pragmatic للسرد في ظل نفوذ نظرية التكلم (see van Dijk, ed, ١٩٧٦). إن فاندايك نفسه يفهم أن هذا التغير في الاتجاه كان نتيجة لإدراك أن كثيراً من خصائص الجمل وصور الخطاب وكمية من الاتصالات الشفوية بصفة عامة لا يمكن الكشف عن سببها بواسطة النظريات النحوية العادية. ويستمر في رأيه حتى يقترح أن ما يحتاج إليه الأمر هو "المكون الجدولى" الذى يمكن به للقواعد والشروط والقيود أن تصاغ بالاعتماد على خصائص نظامية للتكلم والنصوص الاتصالية (فاندايك، ١٩٧٦ - ٧).

على أى حال لابد من القول إننى أتحاشى التورط في معظم نظريات التكلم speech acts وواضعى البرامج والذرائعيين pragmatists من حيث يميلون إلى توجيه انتباههم أولاً إلى المتكلم ونواياه في التكلم. أما أنا فإن انتباهى يركز بصورة مباشرة على السامع أو القارئ. أضف إلى ذلك (فاندايك ١٩٧٧ - أ، و ١٩٧٧ - ب، و ١٩٩٨) دعوى أن الاهتمام الحاضر بالعمليات الإدراكية للخطاب يستند أساساً إلى ما يذكره القارئ من الأحداث التى اشتمل عليها القصص أكثر من أن يكون محاولة لفهم كيفية استنتاج القارئ للمعنى من خلال النص. هذه العملية الأخيرة سوف تكون غايتى في هذا الكتاب.

١٢ - يهينى هذا القسم خلفية تكونت في هذه الدراسة هى أن النموذج المناسب لتكوين النص وللإدراك الحسى Perception يجب أن يشتمل على

وصف شكلي للقدرة الإنسانية على اتباع (ولكن أيضًا تغيير) قواعد عرفية تشبه ما قال به فتجنشتاين من استعمال اللغة وبناء النص. وطبقًا لفرضيات رآها تشومسكى (Chomsky, ١٩٦٥) يمتلك جميع الناس قدرة ذاتية على استبطان لغة ما واستعمالها في الكلام. ولن أحاول الجدل لدعم هذه الفرضية أو معارضتها، ولا أن أكون مهتمًا مباشرة برأى تشومسكى بالنسبة للمقدرة اللغوية (Language Competence). ولكنني على كل حال أزعج أن استعمال اللغة يخضع لمجموعة ما من القوانين العرفية ذات الطابع الثقافي التي تفرض المكان والزمان والكيفية التي تنطق بها الجمل، على حين تقرر المقدرة اللغوية قيودًا نحوية ودلالية معينة على ما ننطق به.

ويبدو التعارف الجماعي في البداية شبيها بما قال به فتجنشتاين من فكرة "المباريات اللغوية" في حدود "صور جماعية للحياة" يمكن أن تشتمل على مجموعات افتراضية من الطرق الضمنية لنسبة معانٍ للكلمات المستعملة يوميًا في عملية التكلم (٧). طبعًا لم يدع فتجنشتاين مطلقًا أن ما يقول به من عرفية استعمال اللغة يفهم على طريقة تشومسكى بأنه شامل وذو طابع عضوي. ومع هذا يبدو كأنه يشير إلى أن أفكارًا من قبيل استعمال اللغة والقواعد والقوانين تعد مظاهر خارجية لأمر لم يتم تحديدها بعد، أو مجموعة من الاحتمالات أو النزعات التي تضبط تكوين الأعراف ذات الأساس الثقافي لتحكم في أمر ما يقال أو يرد على خاطر وما لا يقال أو يرد (Disko, ١٩٧٦ Pole, ١٩٥٨). وسوف افترض في هذا المجال أن نشأة أعراف مشتركة لاستعمال اللغة يجب أن تكون نتيجة لاحتمال لم يكشف عنه بعد.

لهذا استعمل ما أعتقد أنه المظاهر الضرورية لاحتتمالات تشومسكى وفتجنشتاين. ولكنني أحاول ألا أخلط بينهما. وكما أرجو من وجهة النظر العملية أن يتضح في مجرى هذا البحث أرى أن الفرضين يكمل أحدهما الآخر

بصورة ما، لا أنها مجرد متناقضين. وبناء على ذلك لا ينبغي أن يخضعا للمقارنة بمستوى واحد (٨). فإذا قورنا على هذا المستوى الواحد فسوف يحدث اختلاط بينهما في الفهم. وهذا الاختلاط يشبه ما يسميه رايل (Ryle, ١٩٤٩) "خطأ في التصنيف" بالخلط بين كيانين أو أكثر منفصلين في العادة، أو أقسامًا من هذه الكيانات.

ويلمح فتجنشتاين مثلاً إلى نزعة إنسانية غير معينة تتبع القوانين المحددة ثقافياً التي تحكم المعنى، على حين يحاول أن يصف استعمال هذه القوانين بأعباء اللغوية الغامضة الحدود. ويعتقد تشومسكى على العكس أن من الممكن أن نكوّن بوضوح مجموعة من قواعد نحوية عامة مأخوذة من طاقات إنسانية خاصة يمكن بها نطق عدد غير محدد أو فهمه من الجمل في أية لغة طبيعية. كان فتجنشتاين وتشومسكى يتكلمان في ميدانين مختلفين لا يجمعهما شيء ما. وليس الأمر أن يفترض في أحدهما أنه سلوكى وأن الآخر عقلانى، أو أن الأسس المعرفية لنموذج كل منهما وطريقته تختلف تماماً عن ما لدى الآخر. فالأمر المهم هنا أن بؤرة البحث لكل منهما تنبنى على مستويات مختلفة (أنظر Foder, ١٩٧٥, ١٩٧٥). (Leiber,

أعتقد أن اختلافاً آخر مثل هذا الذى بين فتجنشتاين وتشومسكى يجب أن يقوم كذلك بين القدرة على إنشاء أو فهم نصوص مكتوبة في جانب والقدرة على توليد أو فهم اللغة التى كتبت بها هذه النصوص فى جانب آخر، أى بين سيميولوجية هذه النصوص وبين لغوياتها. إن الفشل فى رؤية هذا الاختلاف يساوى ارتكاب خطأ تصنيفى *a category mistake*. إن الأسباب التى دعتنى إلى القول بهذا التفريق هى كما يلي:

"اللغة هى الوسيط وليست هى النص"

والخلاف بين المستوى اللغوى للنصوص ومستوى ما فوق اللغة ليس واضحاً فى كل الأحوال؛ لأن كل النصوص المكتوبة إنما تكون بالضرورة نتيجة

لاستعمال اللغات سواء كانت هذه اللغات طبيعية أم مصنوعة. وسوف أجادل على أى حال بأن النصوص ليست قابلة للنزول إلى المستوى اللغوي، ولا يمكن لمجموعات من الأقوال في النصوص أن تدرس درسًا مناسبًا بنفس الطريقة المستعملة لدراسة مجموعات من الجمل. وكما جرى التأكيد من قبل تواجه هذه الدراسة ما رآه عدد من البنيويين الآخرين الذين يمنعهم اعتقادهم أن النماذج اللغوية تحول دون تحليل الخلافات الأساسية بين اللغات والنصوص. إن النصوص تستعمل اللغة لكشف (على مستوى الوعي أو عدم الوعي، وبقدر من الطاقة غير المحدودة إلى الآن) عن أفكار جديدة ومفاهيم وآراء ورغبات وعواطف تدور حول العالم وحول النصوص الأخرى. إن تحقيق ذلك يؤدي أيضًا إلى عيب في اللغة، مثل إيجاد معان جديدة وصور جديدة للمجاز في التعبير اللغوي (٩).

"يجب أن توضح النصوص مظهر الحدائثة"

ويبدو في كل نص من النصوص ما يوضح درجة ما (أكبر أو أصغر) مما يوجد من الخلاف بينه وبين كل نص آخر، وإذا لم يكن هنالك خلاف كهذا فإن النص لن يشير الكثير من الاهتمام لدى القارئ. وبهذا المعنى يجب لكل النصوص أن تبدو على الأقل مظهر الحدائثة. هذا المظهر الموحى بحدائثة النص هو النتيجة المناسبة للطابع المجازي للتعبير المختفى وراء المظهر اللغوي للنص، وهو ما أريد أن أسميه "النظام الرمزي" للنص. إن الحدائثة التي توجد مثلاً في النصوص العلمية ستبنى على مناقشات جادة وبناء افتراضات ونماذج بواسطة البديهيات والقضايا والعبارات الاستدلالية، وربما بنيت على عبارات الملاحظات. أما الحدائثة في النصوص الأدبية فهي على العكس من ذلك مبنية على المنظور الجمالي. ولهذا يمكن القول إن جوهر النصوص الأدبية ذو طابع ذاتي في الغالب لا أنه عقلي. وسوف أجادل على أى حال بأنه ليس هنا أية حدود بين

نوعى النصوص السابقة، وهو ما يعد من الناحية الجمالية مبعثاً لارتياح أكثر من أى دليل رياضى مقنع. ومن هذه الناحية ينشأ مظهر الحدائفة للنصوص من مصدر إدراكى واحد.

"تعتمد الحدائفة على منظور ذى حدود ثقافية"

فالقدرفة على بناء مظهر الحدائفة أو إدراكه فى جميع النصوص تمثل مقدرفة معينة تختلف عن المقدرفة اللغوية. إنها لا تستلزم entails قدرة نوعية خاصة لتطبيق القواعد النحوية، ولكنها تستدعى قدرة على خلق الفروق difference والإحساس بها بواسطة وسائل محددة عرفياً (قواعد) لاستعمال اللغة لإيجاد النصوص، وترجى defer الطرق العرفية لصوغ الفروق difference وتمييزها بواسطة صياغة مجموعة أخرى من الأعراف. إن الخلط بين المقدرفة اللغوية أو الاستعمال اللغوى ذى القدرفة العادية على بناء الحدائفة النصية وإدراكها وبين إفساد الأعراف الاستعمالية اللغوية المحكومة عرفياً، هذا الخلط يعد مستوى من الخطأ الذى تكلمت عنه من قبل.

"إن القدرفة على إنشاء أو إدراك الحدائفة هى نتيجة لآلية إدراكية لما فوق اللغة"

هذه الآلية الإدراكية ليست هى ما يمكن فهمه بوصفه آلية لغوية فطرية. ولو كانت كذلك لكان لنا ميل دائم إلى إنشاء النصوص وفهمها بنفس الطريقة التى تستعمل بها الجمل النحوية الصحيحة لا أن يتم تجاهل الصواب اللغوى لاستعمال وفهم الصوغ الفنى أو العلمى أو صورة أخرى للفهم. إننا نعزم دائماً على كتابه كلمات أدبية أو قراءتها بطرق عادية لا بكلمات مجازية أو استعارية. إننا ببساطة نتصور أو ندرك بطريقة آلية عدداً غير محدود من الجمل الممكنة، ولكننا يمكن أن نعجز عن إبداع الجديد من الأفكار وعن القدرفة على الخلق وتحليق الخيال. باختصار لن يكون هناك إدراك للأسباب المؤدية لمحاولة الخروج من مجموعات ما نستعمله من المعايير.

لهذا سأحاول في هذه الدراسة أن أبني نماذج افتراضية واستنتاجية يمكن أن توضح الإدراك الآلي من أجل بناء وإدراك ما لا نهاية له من الفروق في عدد غير محدود من النصوص على طول مدى من الزمن غير محدود.

١٣ - هناك حدس conjecture مصدره النظرية السيبرنطيقية وهو ضمنى في هذه الدراسة، ذلك أن صوغ النصوص وفهمها يتطلب نوعين متكاملين من الإجراءات: الأول أن النطق بالمعنى اللغوى المثالى يمكن أن يوصف على مستوى من البساطة، وعلى الجانب الآخر تكشف النظم النصية عن مستويات من التعقيد أو التنوع. ومع أن منتهى التقابل والتعارض يمكن كما يقول جاكوبسون (Jacobson & Halle, ١٩٥٦) أن يوجد على مستويات بسيطة من التنظيم تقريباً نجد أنه عندما يزيد التعقيد يبدأ توالى الفروق في الحلول محل الوحدات المتقطعة فتتخلى هذه الوحدات المتقطعة عن مواقعها للفروق المتوالية (Laszio, ١٩٧٢). لهذا يكون للنواحي فوق اللغوية من النظم النصية قسط أقل من الحدود المختصرة، ولكن لها إلى جانب ذلك لبس وغموض وتعدد لاحتتمالات المعانى أكثر مما يكون لها من أنظمة اللغة.

ولهذا أيضاً يمكن بصفة عامة أن يقال إن درجة التنظيم والتعقيد تزايد عندما تتناقص البساطة التركيبية أثناء الانتقال من المستوى الأدنى إلى المستوى الأعلى. وهكذا تكون الحال عندما نتقدم مثلاً من الذرة إلى الجزئ وإلى الكائن العضوى organism، أو بالنظر إلى بحثنا الحاضر من الفونيم إلى المورفيم إلى الجملة إلى النص (Koestler, ١٩٦٩ Polanyi, ١٩٥٨). وبهذا المعنى ليس من الضروري أن تتساوى القوانين الدنيا الأقل تعقيداً التى تحدد الترتيب والتعضية مع القوانين المحددة للنظم الأكثر تعقيداً (١٠).

أضف إلى ذلك أن هذا التمييز بين البساطة التركيبية والتعقيد التنظيمى يتصل بالفكرة السابقة من أن كل الناس يبدو عليهم أنهم يختلفون إلى حد ما من حيث

طرقهم اللغوية والفكرية. ومخالفة الطرق المعتادة في ضوء نظرية السيبرنطيقا تحض على مناقشة مختصرة، وإن كانت مبررة، لمبدأ استهلاك الطاقة entropy. وكما يقول القانون الثانى من قوانين الديناميكية الحرارية: يميل النظام الفيزيقي المقفل إلى أن يتجه إلى تزايد استهلاك الطاقة (أى إلى حالة من تزايد احتمالات "الفوضى") (١١).

لو أن أحد نصفى قضيب حديدى جرى تسخينه مثلاً وجرى تبريد النصف الآخر فسوف ينشأ ترتيب نظام يعد وقوعه فى الطبيعة أمراً غير محتمل تماماً. ولو فرضنا أن السخونة لم تنته وأن القضيب الحديدى يمثل نظاماً مثالياً مقفلاً فإن درجة حرارة القضيب بعد وقت معين لن تختلف بين طرف منه وبين الطرف الآخر. فلقد نقص النظام عند وصول القضيب إلى أقصى حالاته. ومن المهم أن نلاحظ بعد هذا المثال البسيط أن: أ - القانون الثانى للديناميكا الحرارية يتطلب وجود نظم مقفلة، وب - أن زيادة غير طبيعية فى تنظيم أى نظام عضوى تتطلب تدخلاً من لدن نظام بيولوجى (أحيائى). إن الكائنات غير العضوية تختلف عن الأحياء العضوية من حيث المحافظة على وجودها فى حالة متجددة من نفى الاحتمالات، وفى حالة التطور العضوى تتحول إلى نظم متنامية التركيب. ويتحول هذا إلى مقياس لطاقة غير مستفاد entropy.

وتقف كل الأنظمة الحية وقفة التحدى للقانون الثانى للديناميكية الحرارية، لكن هذه النظم الحية لا يمكن لها أن تنعزل انعزالاً تاماً. فهى لا تكون أبداً فى حالة توازن ثابت، بل إنها تفتح دائماً على عالمها الخارجى، وتحقق تبادلاً مستمرًا للمادة والطاقة مع هذا العالم. إن النظم المفتوحة لا تتطلب اعتبارات الدوام، بل تتطلب التغيير. وهى لا تتطلب التوازن، ولكن تتطلب الميل فى اتجاه عدم التوازن. وتتجه إلى مستويات متزايدة التعقيد والتغاير والتعضية أكثر مما تتجه إلى أبسط الأحوال الممكنة (١٢).

إن المعرفة epistemology بالنظم المفتوحة لا تتطلب الاحتفاظ بمستويات ذات بساطة نسبية فقط (حركة في اتجاه الطاقة غير المستفادة entropy) بل إن فكرة الانفتاح تسمح بإمكان إعادة بناء نظام واحد أو أكثر، وإعادة إحكام أنظمتها عليا معقدة (حركة في اتجاه عكس نفي الطاقة غير المستفادة negentropy).

بهذا الفهم، وبحسب الاهتمامات الحاضرة، يمكن القول بأن الخطط التصورية التي تعودنا بها أن ننشئ نصوصًا أو نتصورها إنما هي دائمًا عرضة للتغير. ونحن نحدث هذا التغير نتيجة للتوتر والارتباك المعتاد في طرق تفكيرنا وتعبيرنا. إن التغير في خططنا الفكرية وفي بنائنا وفهمنا للنصوص لا ينشأ عن مجرد توالي تكوين طرق أبسط مرونة لأفكارنا وتعبيراتها وطرق إدراكنا. فهي أيضًا تمثل كما سناقش ذلك تدرجًا في تعقيد وجهة نظرنا الذاتية في العالم المتفاعل مع البيئة الخارجية دائمًا وبصورة مستمرة.

إذن يكون هناك أمران أساسيان مختلفان تمامًا: أ - الأول تزايد البساطة، التقابل semmtry، الانتظام regularity، البناء structure، ب - والثاني تزايد التعقيد العضوي. يمكن أن نسمى المبدأ الأول مبدأ التوازن homeostatic وهو الميل من خلال نظام مقفل إلى شكل ثابت للتوازن (Ashby, ١٩٦٠). أما الآخر فيمكن أن نصفه بأنه من قبيل التكون الشكلي morphogenetic، أي إظهار دائم لعدد من البنيات الجديدة بواسطة تحطيم breachment بنيات أقدم منها، ودوام حالة عدم توازن disequilibria (Maruyama, ١٩٦٣). إن الحالة الأولى كما حددتها هي طاقة كبرى غير مستفادة large entropic في اتجاه حالة اجتماعية متزايدة. وأما الأخرى فإنها نفي لهذه الطاقة في مواجهة الوضع السائد. وعلى المستوى الأدنى في كل البنيات النظامية تعد البساطة هي العنصر السائد، أما على المستويات العليا فإن التعقيد التنظيمي يتزايد.

لهذا لا يمكن الإحاطة ببناء أنواع النصوص وإدراكها بواسطة مجرد المعرفة epistemology بالأنظمة المقفلة الثابتة للطبقات اللغوية المتشابهة. والنصوص في طابعها مكونة من جزر ebb ومد flow للأفكار وحالات الحدس، بل حتى من العواطف التي لا يمكن إيضاحها إلا بنموذج يستلزم مجموعة من الاتجاهات التكاملية بين الركود stasis والحركة dynamism، والتوازن والتباين، والانفعال والانفتاح، والتفرد الشكلي والمطابقة للنوع.

إن ما سبق يقودنى إلى اعتقاد أن النموذج المناسب لبناء النص وفهمه يجب أن يكون مناسباً بصفة عامة لما وضعه بيرس Peirce من نظرية المعرفة epistemology. إنه يخبرنا باختصار أن كل العلامات تحيل إلى علامات أخرى تحيل بدورها إلى علامات ثالثة بلا نهاية. ليست هناك علامات بلا وساطة (Peirce, ١٩٦٠، ١، ٣٣٩). أضف إلى ذلك أن التفكير كله يتم بواسطة العلامات (Pierce, ١٩٦٠، ٥، ٢٥٣، ٦، ٣٣٨). والحقيقة أن الأفكار أنفسها من قبيل العلامات، ويؤدى ذلك إذن إلى أن جميع الأفكار تحيل إلى أفكار أخرى. ولذلك لا توجد مجموعات من الأفكار الأولية للرموز البديهية، بل على العكس من ذلك كل المعرفة تشبه العلامات من حيث تأتى معهودة بواسطة معرفة سابقة.

إن من ينشئ العلامات ويفهمها ليس مراقباً منعزلاً، ولكنه مشارك دائماً في عالم العلامات. فالفكر علامة، والإنسان هو الفكرة. ويترتب على ذلك أن الناس والكلمات في حال تبادل لمهمة التثقيف. فكل زيادة في المعلومات لدى الناس تعطى وتأخذ من خلال زيادة دلالات الكلمات عطاء مطابقاً (Peirce, ١٩٦٠، ٥، ٣١٣). بهذا المعنى تصبح المعرفة وسيلة لتصحيح ذاتها. فهى تشبه نظاماً سيرنطيقياً ذا مردود دائم، ونظام المعلومات عند بيرس يستمر في التغير وفي التحسن. وحين يتغير يقترب من الحقيقة، ولكن

كون الإنسان معرضًا للخطأ لا يسمح باستيعاب الحقيقة (١٨٠، ١، ١٩٦٠ Peirce).

إن النموذج الذى يوضع للنصوص التى يجرى بناؤها هنا طبقًا لنظرية بيرس السيميوطيقية يشمل النظم اللغوية باعتبارها مجموعة فرعية. إنها تستلزم فكرة التفاعل المستمر بين الإنسان والأفكار والعلامات التجريبية التى يستعملها.

١٤ - يأتي تنظيم الأجزاء الأربعة لهذه الدراسة على النحو التالى: ينقسم كل فصل منها إلى أقسام، وينقسم كل قسم إلى أجزاء، وكل جزء إلى فروع تتكلم عن طبيعية المادة التالية. وسيكون للفصول والأقسام والأجزاء نظام ترقيمى. فمثلاً سيكون معنى الرقم التالى ٤٢، ٢ أن القارئ قد وصل إلى الجزء الثانى من القسم الرابع للفصل الثانى. أضف إلى ذلك أننى خصصت ورقمت خلال النص مجموعة من التعريفات والمقترحات التى تتصل بالنموذج الذى أتصدى لبنائه. وأرجو أن تتذكر (أيها القارئ) أننى لا أنوى ولا أستطيع فى الحقيقة أن أطمع فى الوقت الحاضر أن أتقن هذه التعريفات والمقترحات بأى معنى مطلق. فهذه التعريفات والمقترحات قصد بها أن تكون نقاطاً للإحالة تدور حولها عباراتى. أما أنت فسوف تكون مسئولاً بقدرتك الخاصة عن اتخاذ قرار نهائى حول درجة صلاحها. وأرجو بهذا التنظيم أن أكون قادرًا على تحويل هذا المدى المختلف من الأفكار التى أحاول جمعها إلى الوضوح النسبى.